الأداء الإعلامي لحماس في "عهد السلطة"

د. فريد أبو ضهير[137]

مقدمة:

حماس... "حركة خرجت من رحم الأمة" كما يقول البعض، ودخلت في تفاصيل حياتها لتصبح الرمز الذي يترجم آمال الكثيرين وآلامهم وأحلامهم وطموحهم. ليس هذا الكلام من قبيل مبالغة، وإنما هو توصيف بسيط لواقع معقد. فالشعوب العربية والإسلامية، وتحديداً الشعب الفلسطيني، وقع كالجثة الهامدة بعد سقوط الخلافة، وأخذ يغرق في بحار من الهزائم والكوارث، بل والذل، وغياب الأمل، وانسداد الأفق في أي مستقبل، ووجد نفسه في تيه البحث عن الذات والمستقبل.

لم تنزل حماس كمعجزة من السماء؛ لتخرج الناس من ظلام اليأس إلى نور الأمل. ولكنها كانت تعبيراً عن حالة متأزمة تمرّ بها الأمة بأسرها، وتتجسد في الأعراض الصارخة لأمراضها. هذه الأعراض هي "الملحمة" الواقعة في فلسطين.

وعندما نتحدث عن حماس، فإننا لا نتحدث عن تنظيم ذي خبرة عريقة في العمل السياسي، أو عن فصيل يعمل في ظلّ ظروف طبيعية، وقادر بالتالي على مراكمة التجربة وتطوير المؤسسات اللازمة لضبط إيقاع عمل هذه الحركة، حتى يتسنى بالتالي محاسبتها على أي قصور أو كبوة. ولكن مع ذلك، فإنه لا عذر لأي فصيل فلسطيني، سواء كان حماس أو غيرها، لأن الوضع الطبيعي لـ"حركات التحرر" هو أن يكون غير طبيعي.

الأمر الآخر الذي ينبغي الإشارة إليه في هذه المقدمة، هو أن ممارسة حماس في مرحلة المقاومة، أو تحديداً مرحلة ما قبل الفوز بالتشريعي، يمكن أن وضعها في إطار يختلف عن الإطار الذي أصبحت في ظلّه أغلبية في المجلس التشريعي، ومشكّلة للحكومة العاشرة وما بعدها. فلم يكن مطلوباً من حماس أن يكون لها موقف يتساوق مع المواقف الدولية والعربية، ولم يطلب منها أحد في السابق أن

---

[137] كاتب فلسطيني، قسم الصحافة والإعلام، جامعة النجاح، بيروت.

تعترف مثلاً بـ"إسرائيل" أو تدين العمليات الفدائية، أو غير ذلك. فهي، عملياً، لم تكن تمثل أكثر من نفسها، مع أنها كانت ترى أنها تمثل الأمة في "نضالها" ضدّ الاحتلال، وضدّ المشروع الغربي، الذي تمثل "إسرائيل" رأس حربته، في المنطقة.

بعد أن فازت حماس في انتخابات المجلس التشريعي، وبعد أن شكلت الحكومة العاشرة، كان عليها أن تنهج نهجاً جديداً، ليس فقط على مستوى العمل السياسي والعسكري، ولكن أيضاً على مستوى الخطاب الإعلامي، والتعبير عن المواقف في التعاطي مع المجتمع الدولي والدول العربية.

لقد كان قفز حماس إلى سدة الحكم في فترة قياسية أمراً مفاجئاً، كما قال الكثيرون، للجميع، ولحماس على وجه الخصوص[138]. كان على حماس أن تبدأ بالتفكير في قضايا جوهرية ستفرض نفسها على أجندتها منذ اليوم الأول. كان عليها أن تفكر كيف ستتعامل مع شعارها "يدٌ تبني... ويدٌ تقاوم"، وهي تعلم أن "إسرائيل" تهدم كل ما يبنيه الشعب الفلسطيني، وتواجه بقسوة كل أساليب المقاومة. وتعلم كذلك بالتناقض القائم بين هذا الشعار وبين النهج الذي سارت عليها السلطة منذ قيامها في السنة 1995. وتدرك حماس كذلك أن المحيط العربي والدولي لن يتقبل بسهولة حكومة تقودها حماس لأسباب كثيرة، لا مجال لذكرها في هذا المقام.

هذا غيض من فيض؛ فالتحديات التي واجهت الحكومة التي شكلتها حماس كانت أكبر وأعمق وأقسى مما كان يمكن لها أن تتوقع وهي تخوض الانتخابات التشريعية في السنة 2005، فالأوضاع الداخلية، والتي وصلت إلى مرحلة في غاية السوء في ظلّ الحكومات السابقة، كانت تشير إلى إمكانية انهيار الأوضاع مع صعود حماس إلى سدة الحكم. ثم الحصار المالي والاقتصادي الذي لم تتوقع حماس أن يصل إلى هذا الحدّ، خنق الشعب الفلسطيني، وزاد من حدة الأزمة، وهدد بانهيار كيان السلطة بالكامل. ثم بالطبع الحصار السياسي، والمقاطعة غير المعلنة التي مارسها العرب ضدّ الحكومة العاشرة، فضلاً عن مقاطعة الدول الغربية لها، كل ذلك دفع حماس إلى وضع لا تحسد عليه. ولكنها صمدت، صمدت بشكل

---

[138] كتبت الصحافة بإسهاب حول النتيجة المفاجئة في الانتخابات، ومن ضمن ما كتب ما جاء على لسان تيسير خالد، عضو المكتب السياسي للجبهة الديموقراطية وعضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، في مقال له على موقع الهيئة العامة للاستعلامات، المركز الصحافي الدولي، انظر:
http://www.ipc.gov.ps/ipc_new/arabic/interview/print.asp?name=13641

ربما يتجاوز قدرة أية حكومة أخرى على الصمود، وبخاصة في ظلّ الأوضاع الداخلية المتردية حتى النخاع.

خطاب جديد:

خطاب حماس ما قبل السلطة كان خطاباً معروفاً، مألوفاً، منسجماً مع طبيعة الحركة "الإسلامية" "الجهادية" "المعارضة". فحماس هي ابنة الحركة الإسلامية التي تتخذ من الإسلام قاعدة لانطلاقها في تحقيق أهدافها. وبالتالي، فإن الإسلام يشكل إطاراً ثابتاً لخطابها الإعلامي، ويعطي هذا الخطاب طابعاً مميزاً عن معظم الحركات والتنظيمات الفلسطينية. كذلك، فإن الطابع الجهادي ميّز أيضاً خطاب حماس بشكل واضح وصارخ في فترة ما قبل السلطة. ولم يشب هذا الخطاب أي شائبة فيما يتعلق بالتسويات السياسية، حيث عدّت حماس الاتصالات مع الإسرائيليين، والاتفاقات، مرفوضة، ولا تخدم مصلحة الشعب الفلسطيني. وكذلك صبغ خطاب حماس الطابع المعارض، حيث كانت تمثل المعارضة لتحركات السلطة، وكذلك مواقف الدول العربية المتعلقة بالتسوية، فضلاً عن المواقف الدولية الخاصة بالقضية الفلسطينية.

اليوم، وكما يقول معارضو حماس، تغيرت لهجة هذه الحركة، التي يحلو للبعض أن يصفها بـ"الراديكالية". بل اتهمها هؤلاء بأنها هبطت بخطابها لتصبح بمستوى حركة فتح، إن لم تكن دون ذلك. وفي هذا السياق، لا بدّ من توضيح أمرين اثنين:

المرحلة الجديدة، مرحلة الانتقال من المعارضة إلى السلطة، ومن المقاومة إلى السياسة "الرسمية"، ربما فرضت على حركة حماس، وعلى رموزها المنتشرين في أروقة السلطة، البحث عن أساليب جديدة في الخطاب، توازن بين المبادئ والمستجدات. خطاب لا يُفقد الحركة قاعدتها الشعبية، ويفتح في الوقت نفسه هامشاً لولوج العمل السياسي الرسمي، بما يفرضه هذا الأمر من ضرورة التعامل مع النظامين العربي والدولي.

تجسد ذلك بتصريحات رئيس المكتب السياسي لحركة حماس، خالد مشعل، الذي أعلن مراراً أن الحركة ستتبنى خطاباً سياسياً جديداً. وعلى الرغم من أنه لم يقدم تفسيراً لهذا التصريح، ولم يفصح عن فحوى الخطاب الجديد، وعلى الرغم من تزايد التكهنات حول إمكانية أن يتضمن الخطاب الجديد مواقف جديدة، فإنه ما لبث أن ظهر للمراقبين أن حماس تسعى لتقديم رؤيتها، دون أي تغيير، من

خلال خطاب يتسم بالمرونة والواقعية. ويشير إلى ذلك ما نشرته صحيفة القدس الفلسطينية في صفحتها الأولى على لسان خالد مشعل قوله: لدينا سلطة نشأت على أساس أوسلو وسنتعامل مع هذا الواقع... بواقعية شديدة[139].

عندما نتحدث عن الخطاب الإعلامي لحركة حماس، فإننا نتحدث عن جوانب إيجابية وأخرى سلبية في هذا الخطاب. فقد يكون هناك تماسك في بعض الأحيان في الخطاب، وانسجاماً مع المواقف السياسية، وترجمة لمشاعر الناس وتعبيراً لآمالهم وآلامهم. ولكن هذا الأمر، كما أشرنا، برز بشكل واضح في فترة ما قبل الحكومة والتشريعي. وعلى الرغم من أن هذه الحركة سعت إلى الحفاظ على خطابها هذا، تأكيداً منها أنها لم تتغير بتحولها من مربع المعارضة إلى مربع السلطة، فإنها واجهت واقعاً جديداً جديراً بالدراسة والبحث والتمحيص.

من هنا، وبرصد خطاب حماس، وتحديداً من خلال متحدثيها الرسميين، ورموزها في المجلس التشريعي وفي الحكومة، يمكننا أن نلمس الاتجاهات التالية:

1. الاتجاه نحو الليونة في الخطاب، وفي اتجاه الحدّ الأدنى الذي تقبل به الحركة.
2. الارتباك بسبب الحصار الدولي، ومطالبة الحكومة بالتخلي عن ثوابتها، وكذلك بسبب النقلة من لغة "التشدد" إلى لغة "الليونة".
3. الانجرار إلى الحرب الإعلامية المصاحبة لتطورات الأوضاع الداخلية.
4. ندرة الشخصيات الإعلامية الكاريزمية التي تمتلك القدرة على جذب الجمهور والتأثير عليه بشكل نافذ.
5. عدم امتلاك الأدوات اللازمة والكافية لتوصيل المعلومة والفكرة إلى الجمهور.
6. فقدان الخبرة الإعلامية، والتركيز على سياسة ردود الأفعال، وغياب الفعل الإعلامي في كثير من الأحيان.
7. تداخل الأدوار بين المتحدثين الحكوميين والمتحدثين الحمساويين.

بين التشدد والليونة:

شهد خطاب حماس، كما أشرنا، في فترة ما قبل الانتخابات خطاباً يصفه المراقبون بأنه متشدد، حيث كان يغلق السبل أمام أي خيار سوى المقاومة. وكان

---

[139] جريدة **القدس**، فلسطين، 2006/1/29.

خطاباً ناقداً بشدة للتسوية السياسية واللقاءات الفلسطينية مع الطرف الإسرائيلي. بل إن شعار "يدٌ تبني ويدٌ تقاوم"، والذي رفعته حماس في الانتخابات، جسد هذا التوجه.

بعد فوز حماس في الانتخابات، بدأ تغير ملحوظ في الخطاب الإعلامي، مع السعي الواضح والقاطع بعدم التخلي عن الثوابت. وعلى الرغم من أن "الثوابت" أصبحت كلمة لها مدلولات متفاوتة، تحديداً بين فتح وحماس، فإن الأخيرة ترى أن الثوابت تتمثل في اعتبار المقاومة خياراً استراتيجياً، وأنه لا تنازل عن أرض فلسطين التاريخية، ولا بديل عن حقّ العودة، وصولاً إلى إقامة الدولة الفلسطينية المستقلة.

التغير الذي بدأ المراقبون يلمسونه في خطاب حماس، والذي اعترفت قيادتها، على لسان رئيس مكتبها السياسي خالد مشعل، بشكل واضح بأنها ستتبنى خطاباً سياسياً جديداً، قد تمثل في فتح ملف الدولة الفلسطينية على حدود 67، والموجود أصلاً في أجندة هذه الحركة منذ أن أعلن زعيمها الروحي الشيخ أحمد ياسين قبل أكثر من 15 عاماً أن حماس تقبل بدولة فلسطينية على حدود 67 مقابل هدنة طويلة الأمد. وكان هذا الملف قد أغلق عندما لم يجد آذاناً صاغية من "إسرائيل" أو أي من دول العالم. لهذا، ومع وصول حماس إلى سدة السلطة، تمّ فتح هذا الملف بهدف التعاطي مع التوجهات الدولية التي تحصر الحل في إقامة دولة فلسطينية إلى جانب دولة "إسرائيل". كذلك، فإن فتح هذا الملف هو محاولة لتخفيف حدة التباين بين مواقف حماس وفتح، على اعتبار أنه لا بدّ من توضيح القواسم المشتركة التي يمكن من خلالها قيادة السلطة الفلسطينية، بوجود حماس في الحكومة وفتح في الرئاسة، أو من خلال حكومة الوحدة الوطنية التي تشكلت إثر اتفاق مكة[140].

وكانت حماس تخشى خسارة الشارع الفلسطيني إذا شعر الناخب أنها تخلت عن شعاراتها وبرنامجها الانتخابي، بل تخشى أن تفقد هذه الحركة هويتها وشخصيتها التي ميزتها طيلة السنوات السابقة عن حركة فتح والحركات الأخرى. ولذلك، فإن مسألة الموازنة بين "التشدد" و"الليونة" كانت في غاية التعقيد.

ولكن لا بدّ من الحديث هنا عن خطاب الحكومة وخطاب الحركة؛ فقد ظهر خطاب

---

[140] نشرت أمين تقريراً حول قبول خالد مشعل، رئيس المكتب السياسي لحركة حماس، لدولة على حدود 1967 وردود حركة فتح على ذلك، وتوضيح حماس ومعلقين لهذا الأمر، انظر:
http://www.amin.org/look/amin/article.tpl?IdLanguage=17&IdPublication=7&NrArticle=38217&Nr Issue=1&NrSection=1

أكثر دقة وبعداً عن التشدد في خطاب العديد من شخصيات الحكومة، وبخاصة في الضفة الغربية التي ما تزال تقبع تحت الاحتلال المباشر. في غزة برز خطاب رئيس الوزراء إسماعيل بشكل متزن إلى حدٍّ كبير، على الرغم من بعض العبارات الحماسية، والتي لا تخلّ بالاتزان الذي طغى على خطاب هنية. لقد بهر هنية بخطابه الإنسان الفلسطيني البسيط، والسياسي، كما بهر المراقبين، بمن فيهم الغربيين، إلى حدٍّ كبير.

ولكن مع ذلك، فقد ظهر بعض المتحدثين في الحكومة والتشريعي من حركة حماس، الذين لم يغيروا في خطابهم من ناحية، وخلطوا بين موقف حماس كحركة مقاومة، وبين الحكومة كجهة تمثل الشعب الفلسطيني بأسره من ناحية أخرى. قد يكون التأثير السلبي لهذا الخلط محدوداً على صورة حماس لدى المواطن، ولكن بالتأكيد فإن التأثير السلبي على المستوى السياسي موجود، خصوصاً إذا ما أخذنا في الاعتبار العلاقات الداخلية والخارجية والأبعاد المختلفة للصراع.

وهناك مسألة أخرى في قضية الليونة، حيث اتضح بعد اتفاق مكة للكثيرين أن حماس لم تغير مواقفها المبدئية، وأن التغييرات بمجملها كانت تكتيكية إلى حدٍّ كبير، ولكنه يبقى تغييراً على كل حال، يثبت أن حماس تمتلك المرونة اللازمة للتعاطي مع المتغيرات، ويعطي هذه الحركة صفة القدرة على المزاوجة بين المقاومة والعمل السياسي، بما في ذلك إمكانية المشاركة في الحكم، وفي البحث عن حلول سياسية.

ولذلك، فقد يكون من اللافت للنظر بشكل واضح أن حماس وافقت بشكل غير مباشر على استمرار مسار المفاوضات بين مؤسسة الرئاسة ومنظمة التحرير، وبين "إسرائيل". إذ لم يرد أي احتجاج على استمرار مثل هذه المفاوضات، بل ورد على لسان عدد من وزراء حماس، أنه لا مانع من أن يحاول الرئيس عباس تحصيل أي نتائج إيجابية عن طريق المفاوضات. بل إن اتفاق مكة نصّ على أن المفاوضات هي من صلاحية منظمة التحرير الفلسطيني، في إشارة واضحة إلى عدم اعتراض حماس على مثل هذه المفاوضات. وأكثر من ذلك هي تصريحات بعض الوزراء المحسوبين على حماس، والذين أشاروا إلى أنه لا مانع لديهم من لقاء مسؤولين إسرائيليين في قضايا تتعلق بالأمور الحياتية الفلسطينية، وليس في الموضوع السياسي. ومن هؤلاء وزير المالية السابق د. عمر عبد الرازق، والقائم بأعمال وزير المالية د. سمير أبو عيشة.

الارتباك:

في الحقيقة لم يكن خطاب المرونة السابق ناجماً فقط عن قناعة ذاتية من حماس، نتيجة إدراكها لتطورات الأحداث، والواقع الجديد الذي وجدت نفسها في ظلّه في السلطة، وإنما كانت هناك عوامل خارجية ضاغطة دفعت هذه الحركة إلى التذبذب بين "التشدد" و"المرونة". فقد سارعت الولايات المتحدة الأمريكية إلى حشد المواقف الدولية لفرض الحصار المالي والسياسي على الحكومة التي شكلتها حماس، ووضعت أمامها ثلاثة شروط تعجيزية، لو تحققت لنسفت ثوابت هذه الحركة، ولقضت على أسباب وجودها واتساع شعبيتها.

الخطاب الإعلامي لحماس كان يركز على التمسك بالثوابت، في مسعى للحفاظ على القاعدة الشعبية الواسعة التي تمكنت حماس من بنائها منذ نشأتها، ولكن كان هذا الخطاب أيضاً ينظر بعين أخرى إلى الحصار المفروض على الشعب الفلسطيني، ويخاطب المجتمع الدولي بنوع من الليونة التي أشرنا إليها آنفاً.

كان واضحاً أن هناك ارتباكاً في الخطاب، عندما يصرح أحد مسؤولي حماس بأن الحركة ستعمل على التهدئة، وأنها تبحث عن حلٍّ يعيد للشعب الفلسطيني حقوقه المشروعة (طبعاً دون تحديد هذه الحقوق التي تستثير حفيظة الأمريكيين والإسرائيليين)، في حين يصرح آخرون بأن المقاومة مستمرة، وأن الوصول إلى السلطة لن يلغي هذا الخيار[141].

بالطبع لم تكن "إسرائيل"، ولا المراقبون الفلسطينيون والعرب والغربيون، بغافلين عن هذا الارتباك. بل كانت التحليلات تشير إلى أن هناك تضارباً في تصريحات مسؤولي حماس، وإلى عدم وضوح برنامجها وسياستها في إدارة السلطة. وقد طالب عدد من القادة، وخصوصاً من فتح، ومن دول أخرى، حماس بأن تحدد مواقفها من قضايا المقاومة، والتسوية، والاعتراف بـ"إسرائيل"، وغير ذلك من القضايا بشكل واضح. وظلت حماس تتأرجح في خطابها بين

---

[141] يشير د. خالد محمد صافي في مقالة مطولة بعنوان "تناقض الخطاب الإعلامي لحركة حماس وسيناريوهات المستقبل" إلى وجود التناقض والارتباك في خطاب حماس، ويعدّ ذلك إيجابياً، لأنه يشير إلى وجود حراك داخل الحركة، وخلاف في وجهات النظر، الأمر الذي يعني أن الحركة في تطور مستمر، انظر:

http://www.amin.org/look/amin/article.tpl?IdLanguage=17&IdPublication=7&NrArticle=20347&NrIssue =1&NrSection=2

"المرونة" و"التشدد". وعلى الرغم من أن الأمر بدأ يُحسم تدريجياً لصالح الثوابت "الحمساوية"، إلا أن حماس لم تتخلَّ عن المرونة في خطابها، وأضحى واضحاً للعيان أن حماس لن تتخلَّ عن مواقفها المبدئية، ولكنها مستعدة لكافة الخيارات التي لا تسقط حقوق الشعب الفلسطيني، ولا تسقط خيار المقاومة الذي تعدّه خياراً استراتيجياً، وترى أنه لا يمكن تحقيق الحقوق الوطنية الفلسطينية بغير هذا الخيار.

الانجرار إلى الحرب الإعلامية:

تعودت حماس في المعارضة أن توجه انتقادها إلى أداء السلطة الفلسطينية التي تقودها فتح. ولم تجد نفسها، إلا في حالات نادرة، في موقف الدفاع عن النفس، على اعتبار أن خطّها "المقاوم" هو محلّ إجماع فلسطيني. ولكن الأمر اختلف بعد 2006/1/25، حين وجدت حماس نفسها في موقع المسؤول الذي عليه أن يقوم بمهام صعبة، وفي إدارة دفة الحكم. وهنا وجدت فتح، ومعها الفصائل الأخرى، الفرصة لتوجيه الانتقادات إلى أداء حركة حماس في التشريعي والحكومة. وبالطبع، ومع الحصار الخانق، وانعدام الخبرة لدى حماس في إدارة الحكم، فإن الانتقادات كانت شديدة وكثيفة لدرجة يصعب الرد عليها.

الرواتب، والإضرابات، والتعيينات، والفوضى والانفلات الأمني، والتعامل مع التضييق الإسرائيلي المتصاعد، وغير ذلك من الأمور التي لا يمكن التقليل من أهميتها. واجهت حماس هذه القضايا التي تمّ التعبير عنها في خطاب قوي للتيارات والمؤسسات والشخصيات الفلسطينية من غير حماس.

وعلى الرغم من أن الحملة الإعلامية على حماس كانت شديدة في مختلف المجالات، إلا أن الحملة كانت أشدّ عندما بدأت أحداث الاقتتال الداخلي في غزة والضفة. فقد وُظّفت وسائل الإعلام لتحميل حماس مسؤولية الأحداث، وظهر أسلوب ممنهج لحركة فتح في مجال الإعلام يعكس قدرة كبيرة على ترتيب الأوضاع الإعلامية وفق خطة وأسلوب مدروس. وهذا الأمر أربك حماس أكثر، إذ أنها انتقلت إلى موقف المدافع عن النفس والمبرر للتصرفات والسياسات، وموقف الحركة التي تدفع التهمة عن نفسها.

ولذلك، برز الدور الإعلامي لحماس على أنه يمثل ردوداً للفعل، وليس دوراً مبادراً؛ فقد كانت تكال الاتهامات كل يوم لحماس، مما يضطرها إلى الدفاع عن نفسها،

وتبرير سلوكها، وهو أمر له انعكاسات سلبية على صورتها لدى المواطن العادي[142].

أضف إلى ذلك، الأمر الأهم، وهو عدم تناسق العمل الإعلامي لحماس والحكومة التي تقودها، وعدم القدرة على تغطية القضايا الكثيرة جداً، والتي من المستحيل التعاطي معها إعلامياً دون خطة واضحة، ودون هيكلية إعلامية متماسكة. والأمر الذي يكاد يكون مؤكداً لأي مراقب لأداء حماس الإعلامي هو عدم توفر أي من الأمرين.

ويبدو بشكل واضح أن الحرب الإعلامية التي استهدفت حماس كانت جزءاً من الصراع السياسي بينها وبين القوى السياسية الأخرى، وبخاصة فتح، التي كان من الطبيعي أن تعمل على إسقاط حكومة حماس من خلال إثبات عدم قدرتها على إدارة دفة الحكم. وبالطبع، كان لا بدّ من اللعب إعلامياً على الفشل في فك الحصار المالي والسياسي، وعدم صرف الرواتب، وغير ذلك.

غياب الكاريزما "النجومية" الإعلامية:

فاز في الانتخابات التشريعية 74 مرشحاً من حماس، وتمّ تشكيل الحكومة من 24 وزيراً، بعضهم أعضاء في المجلس التشريعي. معظم هؤلاء الأشخاص لم يمارسوا العمل السياسي من قبل، ولم يؤدوا دوراً إعلامياً، أو يقفوا أمام عدسات الكاميرا، أو أمام حشود الصحفيين.

كان من المفترض أن يمرّ هؤلاء "السياسيون الجدد" بدورات إعلامية وسياسية مثلاً، ويتمرسوا مع الأيام على التعامل مع وسائل الإعلام، طبعاً بعد أن يتمرسوا على أسلوب التعاطي مع القضايا المختلفة من منظور جديد، هو منظور المسؤول في السلطة.

لا نستطيع بالطبع الجزم بأن هذا لم يحدث، ولكن ما نستطيع قوله، هو أنه لم يظهر من بين هؤلاء شخصيات إعلامية قوية لها حضور كبير، قادرة على التأثير القوي على الجمهور، وقادرة على التحكم بالخطاب والمعلومات التي تؤدي إلى انبهار الجمهور. بالطبع ظهر عدد من المتحدثين القادرين على التعبير عن الأفكار والمواقف، وعرض الأحداث بطريقة معقولة. معظم هؤلاء كانوا إما متحدثين باسم حماس قبل

---

[142] من أمثلة ما كتب حول هذا الموضوع، ما نشره موقع شبكة الأخبار الفلسطينية (مدار)، متهمة كلاً من فتح وحماس بالتورط في الحرب الإعلامية، انظر:
http://www.pal-news.net/arabic/news.php?maa=View&id=16076

مرحلة الحكومة، أمثال مشير المصري، وسعيد صيام، والدكتور محمود الزهار، وبالطبع إسماعيل هنية، رئيس الوزراء، الأكثر حضوراً وتأثيراً في الإعلام، أو كان لهم ممارسة إعلامية وسياسية سابقة، أمثال الدكتور غازي حمد، والدكتور أحمد يوسف. ولكن الشخصيات الجديدة كانت بعيدة عن أجواء السياسة والإعلام، وأهمها الدكتور عزيز الدويك، والدكتور عمر عبد الرازق، والدكتور ناصر الدين الشاعر، وغيرهم. لا نستطيع القول إن من كانت لهم خبرة سابقة أتقنوا في هذه المرحلة مخاطبة الجمهور عبر وسائل الإعلام، ولا نستطيع القول كذلك إن من دخلوا حديثاً لمجال الإعلام فشلوا في التعامل معها.

لغاية الآن يوجد لدى حماس عدد محدود من الشخصيات، التي يمكن أن نطلق عليها كاريزمية، ذات حضور كبير في الإعلام، وقادرة على التعامل معه بشكل متقدم، ومن أهمهم رئيس الوزراء إسماعيل هنية، وممثل حماس في لبنان أسامة حمدان. أما الشخصيات الأخرى فتتراوح قدراتها بين الجيد جداً فما دون.

غياب الأدوات الإعلامية:

ثارت ثائرة المجلس التشريعي عندما أُحيلت وكالة وفا والتلفزيون الفلسطيني إلى مسؤوليات رئيس السلطة، على اعتبار أن هذه الخطوة تحرم الحكومة من الأدوات الإعلامية اللازمة للقيام بعملها. وأصبحت وزارة الإعلام الفلسطينية لا تمتلك أية صلاحيات على هاتين المؤسستين المهمتين، ولكن الأمر الطبيعي أن تكون وسائل الإعلام مستقلة، وأن لا تتبع لأية جهة حكومية، هذا هو الأمر السائد في معظم دول العالم. من المفترض أن لا تكون وكالة وفا، أو تلفزيون فلسطين، معبراً عن جهة رسمية، بل يجب أن تكون من ضمن المؤسسات المستقلة التي تعالج القضايا على درجة عالية من الموضوعية والنزاهة والحياد، لا أن تكون أدوات لبث المواقف والآراء لجهة محددة.

لم يكن الأمر كذلك بالنسبة لوكالة وفا أو تلفزيون فلسطين. والأمرّ من ذلك أن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لمعظم وسائل الإعلام "المستقلة"، مثل الصحف اليومية ومواقع الإنترنت ووكالات الأنباء ومحطات التلفزة. فمعظم وسائل الإعلام وقفت موقفاً سلبياً جداً من حماس وحكومتها، وكانت متأثرة بشكل واضح بنفوذ حركة فتح وسلطة الرئيس أبي مازن. وسائل الإعلام هذه حاولت أن تتخذ موقفاً محايداً من خلال نشر مواقف كافة الأطراف، وكذلك من خلال الآراء المطروحة في الصحيفة. وربما برز

بشكل واضح موقف فتح نتيجة لتفوقها الإعلامي. ولكن هذا لا يعفي الصحافة من مسؤوليتها في كشف الحقيقة، وفي التعاطي بإيجابية مع القضايا المختلفة.

فمثلاً، تقوم الصحافة بتضخيم اعتداء يتعرض له مسؤول كبير في فتح من قبل ناشطين من حماس في غزة. بينما تتجاهل، أو تقلل من أهمية حوادث أكثر خطورة من هذه، يتعرض لها أشخاص من حماس على أيدي ناشطين من فتح، والأمثلة على ذلك كثيرة.

كان لا بدّ لحماس أن تعوض هذا النقص من خلال أساليب مختلفة، أهمها المؤتمرات الصحفية. وقد عملت جاهدة على تقديم رؤيتها للأوضاع من خلال المؤتمرات الصحفية. والواقع أن هذا الأمر كان مجدياً إلى درجة كبيرة، اللّهم إلا في حالة الاقتتال الداخلي، حيث كثرت المؤتمرات الصحفية لكل من حماس وفتح، والتي كانت بالطبع متناقضة، الأمر الذي أفقدها أهميتها، وصرف وسائل الإعلام عنها إلى حدٍّ كبير.

البديل الآخر لحماس كان إنشاء مؤسسات إعلامية تابعة لها، أو موالية لها، لكي تتمكن من توصيل وجهة نظرها، وتتجاوز بالتالي ما يمكن تسميته "الحصار الإعلامي" المفروض عليها. فحماس ترى أنها مظلومة في موضوع التغطية الإعلامية للأحداث، ولذلك، قامت بإنشاء فضائية الأقصى، وعملت على تشجيع تأسيس صحيفة يومية مقربة منها، فضلاً عن الإذاعات والتلفزيونات المحلية في غزة والضفة الغربية.

هذه المؤسسات أصبحت منابر، وبشكل واضح، لحماس ورموزها. وعلى الرغم من أن هذه الطريقة كسرت الحواجز أمام حماس للوصول إلى الجماهير، فقد بقيت الحاجة ماسة إلى الوصول إلى الجمهور من خلال وسائل الإعلام العامة الأخرى. والسبب هو أن وسائل إعلام حماس وجدت طريقها بشكل أساس لدى أنصار هذه الحركة، الأمر الذي يمكن أن يسهم في عزلها عن الجمهور العام.

فقدان الخبرة الإعلامية:

الخبرة في المجال الإعلامي تقتضي صياغة الرسالة المناسبة بالصيغة المثلى، وتقديمها بالشكل الملائم، وفي الوقت المناسب. وعندما نقول الرسالة المناسبة فإننا نشير إلى أهمية تحديد القضية والموضوع بناء على الاحتياجات والمتطلبات، وليس بناء على ردود الأفعال، وهو الأمر الذي وقعت فيه حماس، كما أشرنا سابقاً. فهذه الحركة، ومن خلال وجودها في المجلس التشريعي، وفي الحكومة، وكذلك كونها

الحركة الأكبر على الساحة الفلسطينية، فإنه يفترض أن تكون صاحبة فعل، وذات حضور كبير، من خلال إنجازاتها وقراراتها ومواقفها.

لقد لوحظ خلال السنة التي جلست فيها حماس على سدة الحكم الضعف الواضح في هذا المجال، نتيجة لفقدان الخبرة، وقلة الكوادر الإعلامية. فعلى سبيل المثال، عندما كان الوزير يستقبل وفداً أجنبياً، أو يجري محادثات مع مسؤولين فلسطينيين أو عرب، أو يتخذ قرارات معينة، فإن عدداً من هذه الأنشطة كانت لا تحظى بالتغطية الإعلامية. وعند البحث عن السبب وجدنا أنه لم يتمّ كتابة الخبر أصلاً. وقد حدث أن وزراء قاموا بجولات في مؤسسات رسمية في الضفة دون تبليغ وسائل الإعلام بها، الأمر الذي أفقد هذه الأنشطة قيمتها الإعلامية.

من أبرز أسباب ذلك هو عدم وجود كوادر إعلامية ذات خبرة تعمل مع هؤلاء المسؤولين، وكذلك عدم وجود الخبرة لدى المسؤولين أنفسهم، بحيث تكون هناك قنوات تواصل بينهم وبين وسائل الإعلام.

في الحالات الطبيعية كان يفترض أن تقوم الدوائر المعنية بالوزارات والمؤسسات الرسمية بهذا الدور، والعمل على متابعة الترتيبات الإعلامية. ولكن في ظلّ حالة الترهل التي سادت المؤسسات الحكومية الرسمية نتيجة لعدم تفاعل الموظفين، الذين عينتهم حكومات فتح السابقة مع الوزراء الجدد من حماس، ونتيجة لعدم وجود خبرة سابقة لهؤلاء الوزراء والمسؤولين في هذا الجانب، برز الضعف الإعلامي وغياب التغطية الصحفية للكثير من الأنشطة والفعاليات، وحتى المواقف، للمسؤولين[143].

غياب توزيع الأدوار:

أشرنا في السطور السابقة إلى التداخل بين الأدوار للمتحدثين باسم الحكومة أو التشريعي من جهة، وبين متحدثي حماس من جهة أخرى. فقد كان واضحاً أن هناك صعوبة لدى المتحدثين باسم حركة حماس في التفريق بين التعبير عن موقف الحكومة وموقف الحركة، فكان التداخل واضحاً دون أدنى شكّ. فقد نشرت صحيفة القدس في صفحتها الأولى خبراً بعنوان "**الزهار: مستعدون لإرسال كتائب القسام لحماية**

[143] هذه ملاحظات كاتب المقال، من خلال اطلاعه المباشر على أداء عدد من الوزراء، وبخاصة وزير التربية والتعليم العالي د. ناصر الدين الشاعر، ووزير التخطيط د. سمير أبوعيشة في الحكومة المقالة، وكذلك إقرار الوزيرين بهذا الواقع للكاتب.

المسيحيين وكنائسهم، حتى يحين موعد تسلمنا جهاز الشرطة"، في إشارة واضحة إلى خلط الأدوار بين دور محمود الزهار كقيادي سابق في حركة حماس وعضو حالي في المجلس التشريعي[144].

ربما يجد البعض تبريراً لذلك، وهو أن حماس هي التي فازت في الانتخابات، وهي التي شكلت الحكومة. ولكن ينبغي هنا التفريق بين حركة حماس التي خاضت الانتخابات بصفتها التمثيلية لهذه الحركة من جهة، وبين الصفة التمثيلية التي تبوأتها عندما دخلت المجلس التشريعي وقامت بتشكيل الحكومة، حيث أصبحت تمثل الشعب الفلسطيني بأسره. من هنا، ما كان ينبغي لعضو مجلس تشريعي أو وزير أن يقول مثلاً: "نحن في حركة حماس نرى...".

صحيح أيضاً أن المسؤول في التشريعي والحكومة يمثل جانبين، جانب حزبي وجانب حكومي، ولكن من المهم أيضاً الحديث إلى وسائل الإعلام ضمن سياقات متعلقة بهذا التمثيل، وبشكل واضح. وهذا لا يعني بحال من الأحول أن يُحرم المسؤول من التعبير عن نفسه بصفته الحزبية، شرط أن يكون ذلك في سياق متعلق بهذه الصفة.

وهناك جانب آخر لا بدّ من الإشارة إليه، وهو خطاب الحكومة، وخطاب المعارضة بالنسبة لقادة حماس ومتحدثيها الرسميين، حيث برز في بداية فوز هذه الحركة في الانتخابات خطاب مستغرب، ينمّ عن ضعف في الخبرة، وربما عدم استيعاب التغير الكبير الذي حصل نتيجة هذا الفوز. فقد كان يتردد على ألسنة عدد من هؤلاء المسؤولين عبارة: "على السلطة أن تقوم بكذا وكذا.."، وكأنه ألِف خطاب المعارضة، ولم يستوعب أنه هو السلطة، وأن "ما يجب على السلطة أن تقوم به" يعني ما يجب أن يقوم به هو. وربما يكون السبب وراء ذلك أيضاً، هو قيام الرئيس الفلسطيني بسحب الصلاحيات من أيدي الحكومة، وتحديداً السيطرة على الإعلام وأجهزة الأمن. هذا الأمر ربما دفع الكثيرين إلى تبني خطاب يبدو وكأنه منفصل عن السلطة، أي وكأن السلطة هي أبو مازن، فيما تمثل الحكومة إدارة محدودة الصلاحيات.

وعلى كل الأحوال، يبقى الحديث هنا محصوراً في الأداء الإعلامي لمسؤولي حماس في التشريعي والحكومة، والذي، وبصرف النظر عن المبررات، عانى من عدم قدرة على التفريق بين أدوارهم كممثلين لحركة، وكممثلين للشعب الفلسطيني في السلطة الفلسطينية.

---

[144] جريدة **القدس**، 2006/2/3.

كلمة أخيرة:

لا بدّ قبل الخروج من هذا الموضوع بملخص، أن نقول ليس كل ما قامت به حماس في أدائها الإعلامي كان سلبياً، بل إن هناك أموراً كثيرة كانت إيجابية. فالمرونة التي تحدثنا عنها قد تظهر ارتباكاً، كما أشرنا، ولكن ربما كانت هذه الخطوة مناسبة للواقع الراهن. والسؤال هو: هل هيأت حماس قاعدتها الشعبية، وحتى محيطها العربي لتقبل هذا الخطاب؟ لو كان الأمر كذلك فلن يكون هناك ارتباك على الإطلاق.

ولكن في الوقت نفسه، يقول الدكتور نشأت الأقطش، المحاضر في قسم الإعلام في جامعة بيرزيت، إن حماس أربكت المجتمع الدولي، وتحديداً أوروبا وأمريكا، في خطابها الإعلامي. فهي، ولأول مرة في تاريخ الشعب الفلسطيني، كما يقول، تقدم مبادرة تقوم على أساس إقامة دولة فلسطينية في الضفة وغزة، وهي المرة الأولى التي تكون فيها الكرة في الملعب الإسرائيلي والدولي، حيث كان الأسلوب المتبع قبل ذلك من قبل السلطة الفلسطينية هو أسلوب الاستجداء. ويضيف د. الأقطش أن الرأي العام انتظر جواباً من الإسرائيليين والأمريكيين على "مرونة حماس" ومبادرتها دون جدوى[145].

لقد استعرض هذا التقرير عدداً من الأمور التي يمكن عدّها جوانب سلبية، بل ثغرات كبيرة، في أداء حماس الإعلامي[146]. وقد أشرنا إلى أن الخطاب ظهر بشكل مرتبك ومتضارب في بعض الأحيان، بالإضافة إلى اعتماده في الغالب على ردة الفعل. ويشير كل ذلك إلى عدم وجود تخطيط إعلامي، أو إلى ضعف التخطيط الإعلامي إن وجد. كما أشرنا إلى أن ضعف الأداء قد يعود إلى وجود ضعف في الطاقات والكوادر الإعلامية، وعدم توافر متخصصين ذوي كفاءات عالية في مجال الإعلام. وفي الواقع، يتضح من الأداء الإعلامي لوسائل الإعلام التابعة لحماس، أو

---

[145] جاء حديث د. الأقطش في ورشة عمل حول حماس والإعلام، في المركز الفلسطيني للديموقراطية والدراسات والأبحاث في نابلس، 2007/4/29، انظر ملخص الورشة في:
http://paldsr.org/pages/news/show—news.php?subaction=showfull&id=1178700139&archive=&tem=plate

[146] في دراسة غير منشورة للصحفي أمين أبو وردة، أعدّها للمركز الفلسطيني للديموقراطية والدراسات والأبحاث في نابلس، أشار إلى جوانب أخرى سلبية تتعلق بأداء حماس الإعلامي، منها على سبيل المثال، وليس الحصر، عدم وجود متحدثين رسميين في الضفة الغربية بشكل مكافئ لغزة. ومنها أيضاً رفض ممثلي حماس لعروض وسائل الإعلام لتقديم أحاديث إعلامية في الضفة، مقارنة بتهافت شخصيات من الاتجاهات الأخرى على وسائل الإعلام، ومنها أيضاً عدم قدرة حماس على إقامة علاقة وطيدة مع الإعلاميين، وصولاً إلى تسويق مادتهم الإعلامية، وغير ذلك من الأمور السلبية التي نرى أنها تفصيلية ربما تدخل في إطار النقاط المذكورة في تقريرنا هذا.

المحسوبة عليها أن هناك بالفعل غياب للأسلوب الإعلامي المهني. فقد اتضح مثلاً هذا الأمر في فضائية الأقصى التابعة لحماس سواء قبل سيطرة حماس على قطاع غزة أو بعدها. لقد كان خطاب هذه الفضائية حادّاً إلى درجة لا يجعلها في مصافّ وسائل الإعلام المهنية. كما أنها أخذت وجهة نظر واحدة دون التطرق لوجهة النظر الأخرى. وبالإضافة إلى ذلك، فقد عرضت هذه الفضائية صوراً غير مقبولة من الناحية المهنية، مثل صور الدماء والأشلاء التي تمسّ المشاعر الإنسانية.

وهناك جانب أخير لا بدّ من الإشارة إليه، هو عدم قدرة حماس على الوصول إلى المجتمعات الغربية[147]. فمثلاً، لا يوجد لدى حماس متحدث واحد يتحدث اللغة الإنجليزية بطلاقة، ويكون وجهاً مقبولاً لها على شاشات الفضائيات الغربية، ويتحدث إلى مراسلي وسائل الإعلام الغربية. ربما يقول البعض إن هناك مطبوعات ومواقع لحماس تتحدث اللغة الإنجليزية ولغات أخرى. ولكن في الواقع هذا لا يكفي، إذ لا بدّ من وجود متحدثين إعلاميين ذوي قدرات فائقة على التعامل مع وسائل الإعلام الغربية، وعلى عرض القضية من وجهة نظر هذه الحركة وتسويقها في الإعلام الغربي.

وربما يكون هذا الضعف غير مستغرب إذا تذكرنا أن هناك ضعفاً واضحاً في المتحدثين باللغة العربية أصلاً. ولكنها ثغرة موجودة على أية حال، والإشارة إليها على درجة عالية من الأهمية، حيث يشعر الإعلاميون الغربيون بغياب حماس في هذا المجال. وأعتقد جازماً أن الإعلام الغربي يتطلع إلى سدّ هذه الثغرة، لأن اسم حماس يتردد كثيراً في الغرب، والرأي العام هناك يحتاج إلى معرفة أكبر عن هذه الحركة ودورها في الأحداث الجارية.

---

[147] يشير موقع باب إلى هذا الأمر، في معرض خبر حول مقالين نشرا للدكتور أحمد يوسف، مستشار رئيس الوزراء الفلسطيني المُقال إسماعيل هنية، انظر:
http://www.bab.com/news/full_news.cfm?id=88857